رسائل سلفية
٣

رسالة
في
صفة الكلام

للعلامة تقي الدين ابن تيمية

بعناية
طارق السعود

دار الهجرة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

kutub-pdf.net

kutub-pdf.net

رسالة
في
صفة الكلام

kutub-pdf.net

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثانية

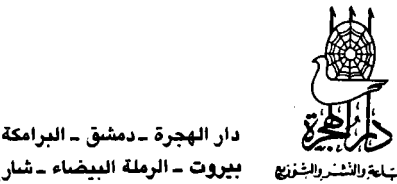

دار الهجرة - دمشق - البرامكة - ص. ب ٥٢٩٩ .
بيروت - الرملة البيضاء - شارع أديسون هاتف : ٨٠٢٢٤٦ .

kutub-pdf.net

بسم اللّه الرحمن الرحيم. قال الشيخ الإمام العالم المتقن المحقق الزاهد الورع الحبر الكامل جامع الفضائل ومرجع الأفاضل معين السائل ومعين المسائل حجة الإسلام بركة الأنام ناصر السنة وقامع البدعة تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العالم فخر الدين عبد الحليم بن الشيخ الإمام العالم العامل القطب مجد الدِّين عبد السلام ابن الشيخ أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني أسبغ اللّه عليه ملابس نعمه الفاخرة، ورزقه فعلَ سعادتي الدنيا والآخرة.

إن القرآن كلام اللّه ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد وغيرهما قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

kutub-pdf.net

عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكلُون إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ وَإِذَا بَدَّلنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾[1] فأمره أن يقول نزله روح القدس من ربك بالحق فإن الضمير في قوله قل نزله عائد على ما في قوله بما ينزل والمراد به القرآن كما يدل عليه سياق القرآن، وقوله: ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ فيه إخبار اللّه بأنه أنزله لكن ليس في هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به ولا أنه منزل منه، ولفظ الإنزال في القرآن قد يرد مقيداً بالإنزال منه كنزول القرآن، وقد يرد مقيداً بالإنزال من السماء، ويراد به العلو فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول الملائكة من عند اللّه وغير ذلك، وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الإنزال، بل ربما يتناول الإنزال من رؤوس الجبال كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[2] والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل الماء وغير ذلك. فقوله: ﴿نزّله روح

(١) سورة النحل الآية ١٠٢.
(٢) سورة الحديد الآية ٢٥.

kutub-pdf.net

القدس من ربك بالحق﴾ بيان لنزول جبريل به من اللّه فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله: ﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لجِبْريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[1] وهو الروح الأمين في قول: ﴿وَإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2] وفي قوله الأمين دلالة على أنه مؤتمن على ما أُرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال في صفته في الآية الأخرى: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3] وفي قوله: ﴿منزل من ربك﴾ دلالة على أمور منها بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقه كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم من السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال إن القرآن مخلوق وأن اللّه لا يُرى في الآخرة جهمياً، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٨.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٤.

(٣) سورة التكوير الآية ١٩ ـ ٢٠.

kutub-pdf.net

الأسماء والصفات وبالغ في نفي ذلك فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والإبتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه وإن كان جعد سبقه إلى بعض ذلك فإن الجعد بن درهم أوَّل من أحدَث ذلك في الإسلام فضحى به خالد بن عبد اللَّه القسري بواسطة يوم النحر وقال أيها الناس ضحوا يقبل اللَّه ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أنّ اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً يكلم موسى تكليماً تعالى اللَّه عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً ثم نزل فذبحه ولكن المعتزلة وإن وافقوا جهماً على بعض ذلك فهم مخالفوه في مسائل غير ذلك: كمسائل القدر والإيمان وبعض مسائل الصفات أيضاً ولا يبالغون في النفي مبالغته.

وجهم يقول إن اللَّه تعالى لا يتكلم أو يقول إنه يتكلم بطريق المجاز وأما المعتزلة فيقولون إنه يتكلم حقيقة لكن قولهم في المعنى هو قول جهم وجهم ينفي الأسماء أيضاً كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء والمقصود أن قوله: ﴿منزل من ربك﴾ فيه بيان أنه منزل من اللَّه لا من مخلوق من المخلوقات ولهذا قال السلف منه بدا أي هو الذي تكلم به

kutub-pdf.net

لم يبتد من غيره كما قالت الخلقية. ومنها أن قوله: ﴿منزل من ربك﴾ فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله، ومنها أن هذه الآية أيضاً تبطل قول من يقول إن القرآن العربي ليس منزلاً من اللّه بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون إن القرآن العربي ليس هو كلام اللّه وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام الهواء أو غيره أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي أو ألهمه محمد فعبّر عنه بالقرآن العربي أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره، فهذه الأقوال التي تقال تفريع على هذا القول فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل أن يصل إلينا وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي وكذلك التوراة العبرية ويفارقه من وجهين أحدهما أن أولئك يقولون إن المخلوق كلام اللّه وهؤلاء يقولون إنه كلام اللّه لكن

kutub-pdf.net

يسمونه كلام اللّه مجازاً وهذا قول أئمتهم وجمهورهم، وقال طائفة من متأخريهم بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالإشتراك اللفظي لكن هذا ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به وهم مع هذا لا يقولون إن المخلوق كلام اللّه حقيقة كما تقوله المعتزلة مع قولهم أنه كلامه حقيقة بل يجعلون القرآن العربي كلاماً لغير اللّه وهو كلامه حقيقة وهذا شر من قول المعتزلة وهذا حقيقة قول الجهمية ومن هذا الوجه، فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة لكن المعتزلة في المعنى يوافقون هؤلاء وإنما ينازعونهم في اللفظ الثاني. إن هؤلاء يقولون للّه كلام هو معنى قديم قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية في الظاهر، لكن جمهور الناس يقولون إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاماً حقيقة غير المخلوق فإنهم يقولون إنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر فإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، ومنهم من قال هو خمس معان.

وجمهور العقلاء يقولون إن فساد هذا معلوم بالضرورة

kutub-pdf.net

بعد التصور التام والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطؤ واتفاق كما في مخبر الأخبار المتواترة، وأما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمداً وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة ولو يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله : ولحبه لِنصر ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة.

وقال جمهور العقلاء نحن اذا اعربنا التوراة والانجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن بل معاني هذا ليست معاني هذا وكذلك معنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] ليس هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[2] ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين: وقال إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة فاعترف أئمة لهذا القول بأن هذا الالزام

---

(١) سورة الإخلاص الآية ١.

(٢) سورة المسد الآية ١.

kutub-pdf.net

ليس لهم عنه جواب عقلي: ثم منهم من قال الناس في الصفات إما مثبت لها قائل بالتعدد وإما ناف لها وأما إثباتها واتحادها فخلاف الاجماع وهذه طريقة القاضي أبي بكر[1] وأبي المعالي[2] وغيرهما: ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب كأبي الحسن الآمدي وغيره: والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تثبت بطلان غيره فإن قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾[3] يقتضي نزول القرآن من ربه والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله: ﴿فإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ﴾[4] وإنما يقرأ القرآن العربي لا

---

(١) أبو بكر: هو القاضي محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة عام ٣٣٨ هـ، الموافق ٩٥٠ م، وتوفي في عام ٤٠٣ هـ، الموافق ١٠١٣ م، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب.

(٢) أبو المعالي: هو عبد الملك بن عبد اللّه بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ولد في جوين (نيسابور) عام ٤١٩ هـ، الموافق ١٠٢٨ م. ورحل إلى بغداد، ثم إلى مكة وجاور الحرم أربع سنين وأفتى في المدينة. ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك «المدرسة النظامية». مات سنة ٤٧٨ هـ، الموافق ١٠٨٥ م.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢.

(٤) سورة النحل الآية ٩٨.

kutub-pdf.net

يقرأ معانيه المجردة، وأيضاً فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أعلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾[1] فالذي أنزله اللَّه هو الذي نزله روح القدس فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من اللَّه فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه وأيضاً فإنه قال عقيب هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[2] وهم كانوا يقولون إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط بدليل قوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ فإنه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألحدوا إليه بأن أضافوا إليه هذا القرآن فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي والقرآن لسان عربي مبين وعبر عن هذا المعنى بلفظ يلحدون لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم إلى هذا الذي أضافوا إليه القرآن فإن لفظ الالحاد يقتضي ميلاً عن شيء إلى شيء

---

(١) سورة النحل الآية ١٠١.

(٢) سورة النحل الآية ١٠٣.

kutub-pdf.net

بباطل فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم فإن الانسان قد يتعلم من الاعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي ويعبر عنه هو بعبارته وقد اشتهر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي قيل أنه كان مولى لابن الحضرمي واذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشراً والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين علم أن روح القدس نزل باللسان العربي وأن محمَّداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم أنه سمعه منه لم يؤلفه هو وهذا بيان من الله أن القرآن الذي هو اللسان العربي سمعه روح القدس من الله ونزل به منه، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكلِّ نَبِيٍّ عُدُواً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾[1] الى قوله: ﴿مُفْتَرُونَ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُم الكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾[2] والكتاب اسم

(١) سورة الأنعام الآية ١١٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٤.

kutub-pdf.net

للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام اللّه وكتاب اللّه فيقول كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو مخلوق والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة واللّه تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً فقال تعالى: ﴿أَلر. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1] وقال: ﴿طس. تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2] وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ﴾[4] فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب: وقال ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[5] وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[6] وقال: ﴿يَتْلوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[7] وقال:

---

(١) سورة الحجر الآية ١ .

(٢) سورة النمل الآية ١ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٩ .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٠ .

(٥) سورة البروج الآية ٢٢ .

(٦) سورة الواقعة الآية ٧٧ ـ ٧٨ . (٧) سورة البينة الآية ٢ ـ ٣ .

kutub-pdf.net

﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾[1] وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيكَ كِتَاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِم﴾[2] لكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[3] وقال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[4] والمقصود هنا أن قوله وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً يتناول نزول القرآن العربي على كل قول: وقد أخبر ﴿أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾[5] اخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم وقال إنهم يعلمون ذلك ولم يقل أنهم يظنونه أو يقولونه والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم بخلاف القول والظن الذي ينقسم الى حق وباطل فعلم أن القرآن العربي منزل من اللّه لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا من محمد ولا غيرهما وإذا كان أهل الكتب يعلمون ذلك

---

(١) سورة الطور الآية ١ ـ ٢ ـ ٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٧ .
(٣) سورة الواقعة الآية ٧٧ ـ ٧٨.
(٤) سورة الإسراء الآية ١٣ .
(٥) سورة الواقعة الآية ٧٨ .

kutub-pdf.net

فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه وهذا لا ينافي ماجاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] أنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفرقا بحسب الحوادث ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهرة. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[5] فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ: وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي كون جبريل نزل به من اللّه سواء كتبه اللّه قبل أن يرسل به

---

(١) سورة القدر الآية ١.

(٢) سورة البروج الآية ٢١ ـ ٢٢.

(٣) سورة الواقعة الآيات ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) سورة عبس الآيات ١١ ـ ١٥.

(٥) سورة الزخرف الآية ٤.

kutub-pdf.net

جبريل أو بعد ذلك وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله واللّه تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة وآثار السلف ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعدما يعملونها فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف وهو حق فاذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف تستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم. ومن قال أن جبريل أخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من اللّه كان هذا باطلاً من وجوه: منها أن يقال فاللّه سبحانه وتعالى قد كتب التوراة لموسى بيده فبنو اسرائيل أخذوا كلام اللّه من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه فإن كان محمّد أخذه عن جبريل وجبريل عن الكتاب كان بنو اسرائيل أعلا من محمد بدرجة، وكذلك من قال أنه القي إلى جبريل المعاني وأن جبريل عبر عنها بالكلام العربي فقوله يستلزم أن يكون جبريل ألهمه إلهاماً وهذا

kutub-pdf.net

الالهام يكون لآحاد المؤمنين. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلى الحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[1] وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسىٰ أَنِ ارْضِعِيهِ﴾[2] وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الأنبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ولهذا زعم ابن عربي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء وقال لأنه يأخذ من المعدن الذي يوحى به إلى الرسول فجعل أخذه وأخذ الملك الذي جاء الى الرسول من معدن واحد وادعى أن أخذه عن اللّه تعالى أعلى من أخذ الرسول للقرآن، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر وأن هذا القول من جنسه، وأيضاً فاللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَوْحَينَا إِلَيْكَ كَما أَوْحَينا إلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَاسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ﴾[3] الى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ موسىٰ تَكْلِيماً﴾[4] ففضل موسى بالتكليم على

---

(١) سورة المائدة الآية ١١١.

(٢) سورة القصص الآية ٧.

(٣) سورة النساء الآية ١٦٣.

(٤) سورة النساء الآية ١٦٤.

kutub-pdf.net

غيره ممن أوحى اليه وهذا يدل على أمور أن اللّه يكلم عبده تكليماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص فإن الخاص لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم الى عام وخاص فالتكليم العام هو المقسم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾[1] والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص كما في قوله لموسى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحىٰ﴾[2] وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات فإنه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لآحاد العباد: ومثل هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يكلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾[3] فانه فرق بين الايحاء وبين التكليم من وراء الحجاب وبين

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١،

(٢) سورة طه الآية ١٣.

(٣) سورة الشورى الآية ٥١.

kutub-pdf.net

ارسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء فدل على أن التكلم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الايحاء، وأيضاً فقوله: ﴿تنزيل الكتاب من اللّه العزيز الحكيم﴾[1] وقوله: ﴿حم تنزيل الكتاب من اللّه العزيز العليم﴾[2] وقوله: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾[3] وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من اللّه لا من غيره، وكذلك قوله: ﴿بَلِغْ ما أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[4] فانه يدل على اثبات أن ما أنزل اليه من ربه وأنه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك. وأيضاً فهم يقولون انه معنى واحد فإن كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام اللّه وأن سمع بعضه فقد تبعض وكلاهما ينقض قولهم فإنهم يقولون إنه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض، فإن كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام اللّه وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره فيلزم أن

---

(١) سورة الزمر الآية ١، وسورة الجاثية الآية ٢، وسورة الأحقاف الآية ٢.

(٢) سورة غافر الآية ٢.

(٣) سورة فصلت الآية ٢.

(٤) سورة المائدة الآية ٦٧.

kutub-pdf.net

يكون كل واحد ممن كلمه اللّه وأنزل عليه شيئاً من كلامه عالماً بجميع أخبار اللّه وأوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة، وإن كان الواحد من هؤلاء إنما يسمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم، وأيضاً فقوله: ﴿**وكلم اللّه موسى تكليماً**﴾[1] وقوله: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾[2] وقوله: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾[3] وقوله: ﴿**فلَمَّا أتاهَا نُودِيَ يامُوسى إنِّي أنا رَبُّكَ فاخْلَعْ نعْلَيْكَ إنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوى وَأنا اخْتَرْتُكَ فاسْتَمِعْ لِما يُوحى**﴾[4] الآيات دليل على تكليمٍ يسمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة. ومن قال إنه يسمع فهو مكابر، ودليل على أنه ناداه والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء لغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازاً وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿**فلَمَّا جاءَها نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها**

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.
(٣) سورة مريم الآية ٥٢.
(٤) سورة طه الآية ١١.

kutub-pdf.net

وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِين﴾[1] وقوله: ﴿فلَمَّا أتاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الوَادِ الأيمَنِ في البُقْعَةِ المُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أنْ يا مُوسىٰ إنِّي أنا اللَّهُ رَبُّ العَالمِينَ﴾[2] وقال: ﴿وهل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾[3] وقال: ﴿فلمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إني أنا رَبُّكَ﴾[4] وفي هذا دليل على أنه حينئذ نودي ولما يناد قبل ذلك. ولما فيها من معنى الظرف كما في قوله: ﴿وأنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّه يَدْعُوهُ كادُوا يكُونون عَلَيه لِبَدَا﴾[5] ومثل هذا قوله: ﴿ويَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُول ماذا أَجَبْتُمُ المُرْسَلين﴾[6] ﴿ويَوْمَ يُنَادِيهُمْ فَيَقُولُ أين شُرَكَائي الذين كُنْتُمْ تَزْعَمُون﴾[7] فإنه وقت النداء بظرف محدود فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره من الظروف وجعل الظرف للنداء لا لسمع النداء. ومثل هذا قوله تعالى:

---

(١) سورة النمل الآية ٨.
(٢) سورة القصص الآية ٣٠.
(٣) سورة النازعات الآية ١٥ ـ ١٦.
(٤) سورة طه الآية ١١ ـ ١٢.
(٥) سورة الجن الآية ١٩.
(٦) سورة القصص الآية ٦٥.
(٧) سورة القصص الآية ٧٤.

kutub-pdf.net

﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً﴾[1] وقوله: ﴿وإذ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم﴾[2] وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين فإن الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته.

ثم من هؤلاء من يقول أنه معنى واحد لأن الحروف والأصوات متعاقبة يمتنع أن تكون قديمة، ومن قال: بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان وأنها مترتبة في ذاتها متقاربة في وجودها لم تزل ولا تزال قائمة بذاته والنداء الذي سمعه موسى قديم أزلي لم يزل ولا يزال، ومنهم من قال بل الحروف قديمة الأعيان بخلاف الأصوات وكل هؤلاء يقولون إن التكليم والنداء ليس إلا مجرد خلق إدراك المخلوق بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم اللّه به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه بمنزلة

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤.

kutub-pdf.net

ما جعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير أحداث شيء منفصل عن الأعمى، فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا انه حينئذ نودي، ولهذا يقولون أنه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس إنه يكلم خلقه وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ويقولون عن أنفسهم أنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا إن القرآن كلام اللّه غير مخلوق وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه، أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون للّه كلاماً قائماً بذاته بنفس اللّه وهذا قول السلف بخلاف الخلقية الذين يقولون ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره فإن قول هؤلاء مخالف لقول السلف: وأما كون قول الخلقية أقرب فلأنهم يقولون إن اللّه يتكلم بمشيئته وقدرته وهذا قول السلف وهؤلاء عندهم لا يقدر اللّه على شيء من كلامه وليس كلامه بمشيئته واختياره بل كلامه عندهم كحياته وهم يقولون الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل، والخلقية يقولون صفة فعل لا صفة ذات. ومذهب السلف أنه صفة ذات وفعل معاً فكل منهما موافق السلف

kutub-pdf.net

من وجه دون وجه واختلافهم في كلام اللّه تعالى شبيه اختلافهم في رضاه وغضبه وارادته وكراهته وحبه وبغضه وفرحه وسخطه ونحو ذلك، فإن هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجع إلى الثواب والعقاب، والآخرون يقولون بل هذه كلها أمور قديمة الأعيان قائمة بذاته، ثم منهم من يجعلها كلها تعود إلى إرادة واحدة العين متعلقة بجميع المخلوقات، ومنهم من يقول بل هي صفات متعددة الأعيان لكن يقول كل واحدة واحدة العين قديمة قبل وجود مقتضياتها كما قالوا مثل ذلك في الكلام واللّه تعالى يقول: ﴿ذلِكَ بأَنَّهُمُ اتَّبعوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾[1] فأخبر أن أفعالهم أسخطته، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفونا انْتَقَمْنَا مِنهُم﴾[2] أي أغضبونا. وقال تعالى: ﴿ادعُوني أستجِب لَكُم﴾[3] الى أمثال ذلك مما بيّن أنه سخط على الكفار لما كفروا ورضي عن المؤمنين لما آمنوا، ونظير هذا اختلافهم في أفعاله ومسائل القدر فإن المعتزلة يقولون إنه

---

(١) سورة محمد الآية ٢٨.

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٥.

(٣) سورة غافر الآية ٦٠.

kutub-pdf.net

يفعل لحكمة مقصودة وإرادة الاحسان إلى العباد لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه، وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً، فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به، وهؤلاء لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يتصف به والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يعود إليه وكذلك في الكلام أولئك أثبتوا كلاماً هو فعله لا يقوم به، وهؤلاء يقولون ما لا يقوم به لا يعود حكمته إليه والفريقان يمنعون أن يقوم به حكمة مرادة له كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده. وقول أولئك أقرب إلى قول السلف. والفقهاء إذا أثبتوا الحكمة والمصلحة في أحكامه وأفعاله أثبتوا كلاماً يتكلم به بقدرته ومشيئته، وقول هؤلاء أقرب الى السلف إذا أثبتوا الصفات وقالوا لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به أصلاً ولا يعود إليه حكم من شيء لم يقم به فلا يكون متكلماً بكلام لم يقم به ولا يكون حكيماً كريماً ورحيماً بحكمة ورحمة لم تقم به كما لا يكون عليماً بعلمم لم يقم به وقديراً بقدرة لم تقم به ولا يكون محباً راضياً غضباناً بحب ورضى وغضب لم يقم به فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام اللّه وأفعال اللّه وافقوا

kutub-pdf.net

السلف والأئمة من وجه وخالفوهم من وجه وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر لكن الأشعرية في جنس مسائل الصفات بل وسائر صفاته، والقدر أقرب إلى قول السلف دون الآخر والأئمة من المعتزلة.

فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[1] وهذا يدل على هذا أن الرسول أحدث الكلام العربي. قيل هذا باطل وذلك لأن اللّه ذكره في القرآن في موضعين فالرسول في أحد الموضعين محمد والرسول في الآية الأخرى جبريل قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَما هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[2] فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3] فالرسول هنا جبريل فلو كان إضافة إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران

---

(١) سورة الحاقة الآية ٤٠.

(٢) سورة الحاقة الآية ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة التكوير الآية ٢٠.

kutub-pdf.net

متناقضين فإنه إن كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها وأيضاً فإنه قال لقول رسول كريم ولم يقل لقول ملك ولا نبي ولفظ الرسول يستلزم مرسلاً له فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه، وهذا يدل على أنه أضافه الى الرسول لأنه بلغه وأداه لا لأنه أنشأ منه شيئاً ولا ابتدأه وأيضاً فإن اللّه قد كَفَّر من جعله قول البشر بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يؤثرُ. إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ﴾[1] ومحمد بشر فمن قال إنه قول محمد فقد كفر ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جني أو ملك فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَما هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[2] فجعله قول الرسول البشري مع تكفير من يقول إنه قول البشر فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله لا إنه قول له من تلقاء نفسه وهو كلام اللّه الذي أرسله كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ

---

(١) سورة المدثر الآيات ١٨ ـ ٢٥.

(٢) سورة الحاقة الآية ٤١.

kutub-pdf.net

أحدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[1] فالذي بلّغه الرسول هو كلام اللّه لا كلامه ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالمواسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي»[2] وغيره والكلام كلام اللّه من قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً وموسى سمع كلام اللّه من اللّه بلا واسطة والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض فسماع موسى مطلق بلا واسطة وسماع الناس سماع مقيد بواسطة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاء حِجاب أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحى بإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾[3] ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلم الأنبياء بإرسال رسول إليهم والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ: «نضّر اللّه أمراً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه» فالمستمع منه

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) سورة الشورى الآية ٥١،

kutub-pdf.net

يبلغ حديثه كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول فالكلام كلام الرسول تكلم به بصوته والمبلغ بلغ كلام الرسول بصوت نفسه وإذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[1] وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارىء وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادي اللَّه به ويتكلم به كما نطقت النصوص بذلك بل ولا مثله فإن اللَّه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله فليس علمه مثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم ولا كلامه مثل كلامهم ولا نداؤه مثل ندائهم ولا صوته مثل أصواتهم فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام اللَّه أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال، ومن قال إن أصوات العباد والمداد الذي يكتب به القرآن قديم

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) رواه البخاري في التوحيد ورواه أبو داوود ورواه النسائي وابن ماجه والدارمي في فضائل القرآن ورواه الإمام أحمد.

kutub-pdf.net

أزلي فهو ملحد مبتدع ضال بل هذا القرآن وهو كلام اللّه وهو مثبت في المصاحف وهو كلام اللّه مبلغاً عنه مسموعاً من القراء ليس هو مسموعاً منه والانسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ويراها في ماء أو مرآة فهذه رؤية مفيدة بالواسطة وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة وكذلك الكلام لم يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة ويسمع المبلغ عنه بواسطة والمقصود بالسماع هو كلامه في الموضعين كما أن المقصود في الرؤية هو المرئي في الموضعين.

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والإفتراق والإختلاف والاتفاق زالت عنه الشبهة التي تصيب كثيراً من الناس في هذا الباب فإن طائفة قالت هذا المسموع كلام اللّه والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق فكلام اللّه مخلوق وهذا جهل فإنه مسموع من المبلغ ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً أن يكون نفس الكلام مخلوقاً . وقالت طائفة هذا المسموع كلام اللّه وهذا جهل فإن المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه . وطائفة قالت هذا كلام اللّه وكلام اللّه غير

kutub-pdf.net

مخلوق فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل فإنه إذا قيل هذا كلام اللّه فالمشار إليه الكلام من حيث هو وهو الثابت إذا سمع من اللّه وإذا سمع من المبلغ عنه وإذا قيل للمسموع أنه كلام اللّه فهو كلام اللّه مسموعاً من المبلغ عنه لا مسموعاً عنه فهو مسموع بواسطة صوت العبد وصوت العبد مخلوق. وأما كلام اللّه نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع.

فإن قيل ما منشأ هذا النزاع والتفرق والاختلاف، قيل منشأه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل فيه ما يوافق العقل والسمع وفيه ما يخالف العقل والسمع فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي الحق والباطل وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل وباطله هو المخالف للكتاب والسنّة وإجماع السلف فكل كلام خالف ذلك فهو باطل ولا يخالف ذلك إلا كلام مخالف للعقل والسمع وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم واثبات الصانع فاستدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام على ذلك بأن ما لا يخلو عن الحوادث

kutub-pdf.net

فهو حادث ثم أن المستدلين بذلك على حدوث الأجسام قالوا إن الأجسام لا تخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ثم تنوعت طرقهم في المقدمة الأولى فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وتارة يثبتونها بأن الأجسام لاتخلو عن الإجتماع والافتراق وهما حادثان وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الأكوان الأربعة الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وهي حادثة، وهذه طرق المعتزلة[1] ومن وافقهم على أن الأجسام قد تخلو عن بعض أنواع الأعراض وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الأعراض عن عرض منه ويقولون القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ويقولون أن الأعراض يمتنع بقاؤها لأن العرض لا يبقى زمانين وهذه الطريقة هي التي اختارها الآمدي وزيف ما سواها، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي

---

(١) المعتزلة : هم جماعة من المسلمين اعتمدوا على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية . وأشهر المعتزلة : واصف بن عطاء ، وعمر بن عبيد اللذان انفصلا عن الحسن البصري .

kutub-pdf.net

الجويني[1] وأبي الوليد الباجي[2] وأمثالهم. وأما الهشامية والكرامية وغيرهم من الطوائف الذين لا يقولون بحدوث كل جسم ويقولون أن القديم تقوم به الحوادث فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الأصل فإنهم يقولون الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة فإنها لا تخلو عن الحوادث والناس متنازعون في السكون هل هو أمر وجودي أو عدمي فمن قال إنه وجودي قال الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ومن قال إنه عدميّ لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي فمن قال إنه تقوم به الحركة والحوادث بعد أن لم

---

(١) أبو المعالي الجويني: تقدم شرحه.

(٢) أبو الوليد الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد التجيني القرطبي، أبو الوليد، فقيه مالكي كبير من رجال الحديث، ولد في باجة (الأندلس) عام ٤٠٣ هـ، الموافق ١٠١٢ م، ورحل إلى الحجاز سنة ٤٢٦ هـ، فمكث فيها ثلاثة أعوام، وأقام ببغداد، توفي بالمرية عام ٤٧٤ هـ، الموافق ١٠٨١ م.

kutub-pdf.net

يكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث كما هو قول الكرامية وغيرهم ويقولون إذا قامت به الحركة لم يعدم بفنائها سكون وجودي بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم أنه يفعل بعد إن لم يكن فاعلاً ولا يقولون أن عدم الفعل أمر وجودي كذلك الحركة عند هؤلاء وكان كثير من أهل الكلام يقولون ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة فإن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث.

وهذا الكلام مجمل فإذا أريد ما لا يخلو عن الحادث المعين أو ما لا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ولا نزاع فيه وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ماله أول أو ما كان بعده العدم ونحو ذلك وأما إذا أريد بالحوادث الأمور التي تكون شيئاً بعد شيء لا إلى أول، وقيل إنه لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بيّناً بل هذا مقام حار فيه كثير من الأفهام وكثر فيه النزاع والخصام ولهذا صار المستدلون بقولهم ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث يعلمون أن هذا الدليل لا يتم إلا إذا أثبتوا امتناع حوادث لا

kutub-pdf.net

أول لها فذكروا في ذلك طرقاً قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع.

وهذا الأصل تنازع الناس فيه على ثلاثة أقوال: فقيل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وبامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والأشعرية ومن دخل في ذلك من الفقهاء وغيرهم. وقيل بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً وليس كل ما قارن حادثاً بعد حادث لا إلى أول يجب أن يكون حادثاً بل يجوز أن يكون قديماً سواء كان واجباً بنفسه أو بغيره وربما عبر عنه بالعلة والمعلول والفاعل والمفعول ونحو ذلك وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك كأرسطو وأتباعه مثل ثامسطيوس[1]، والاسكندر[2].....

(١) ثامسطيوس: من علماء اليونان، ومن أشهر تلامذة أرسطو، أجاد في علم الفلسفة، وله عدة مؤلفات.

(٢) الإسكندر: (٣٥٦ ـ ٣٢٤) ق.م. الملقب بذي القرنين، ولد في مقدونية وتوفي في بابل، تعلم على أرسطو، خلف أباه فيلبس، وعزم على فتح امبراطورية الفرس فانتصر عليهم في إيسوس ٣٣٣ ق.م. ثم في سواحل فينيقيا بعد أن حاصر صور سبعة أشهر ثم في مصر حيث أسس الاسكندرية ٣٣٢ ق.م.

kutub-pdf.net

الافـريـديـوسي، وبـرقليس[1]، والفـارابي[2]، وابن سينـا وأمثالهم.

وأمـا جمهورالفـلاسفة المتقـدمين على أرسـطو فلم يكونوا يقولون بقدم الأفلاك، ثم الفلاسفة من هؤلاء وهؤلاء متنازعون في قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود على قـولين معروفين لهم وأثبت ذلـك قول كثيـر من الأساطين القدماء وبعض المتأخرين كأبي البركـات صاحب المعتبـر وغيره كما بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع وقيل بل إن كان المستلزم للحوادث ممكناً بنفسه وأنه هو الذي يسمى مفعولاً ومعلولاً ومربوباً ونحو ذلك من العبـارات وجب أن يكون حادثاً وإن كان واجباً بنفسه لم يجب أن يكون حادثاً وهذا قول أئمة أهل الملل وأسـاطين الفلاسفـة وهو قـول جماهير أهل الحديث وصاحب هذا القول يقول ما لا يخلو

---

(١) برقليسن: من فلاسفة اليونان.

(٢) الفارابي: هو محمد بن محمد بن طرخان ابن اوزلغ أبو نصر الفارابي، أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، ولد في فاراب سنة ٢٦٠هـ الموافق ٨٧٤م. اتصل بسيف الدولة ابن حمدان، وتوفي بدمشق عام ٣٣٩هـ، الموافق ٩٥٠م.

kutub-pdf.net

عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث أو ما لا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعول أو مبتدع أو مصنوع فهو حادث لأنه إذا كان مفعولاً مستلزماً للحوادث امتنع أن يكون قديماً فإن القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله بحيث يكون أزلياً لا يتأخر عنه وهذا ممتنع فإن ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعلاً موجباً بذاته يستلزم معلوله في الأزل فإن الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء لا يكون مجموعها في الأزل ولا شيء منها أزلياً بل الأزلي هو دوامها واحداً بعد واحد والموجب بذاته والمستلزم لمعلوله في الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شيء سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة فإن ما كان واحداً بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شيء، فيمتنع أن يكون معلولاً مقارناً لعلته في الأزل بخلاف ما إذا قيل إن المقارن لذلك هو الواجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء فإنه على هذا التقدير لا يكون في الأزل موجباً بذاته ولا علة تامة لشيء من العالم فلا يكون معه في الأزل من المخلوقات شيء لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئاً بعد شيء وكل مفعول يوجد عند وجود كمال فاعليته إذ المؤثر

kutub-pdf.net

التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره إذ لو لم يكن مؤثراً تاماً فوجود الأثر يستلزم وجود المؤثر التام ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر فليس في الأزل مؤثر تام فليس مع اللّه شيء من مخلوقاته قديم بقدمه والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً بل كل ما يقدره العقل من الغاية التي ينتهي إليها فالأزل قبل ذلك كما هو قبل ما قدره فالأزل لا أول له كما أن الأبد لا آخر له، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» فلو قيل أنه مؤثر تام في الأزل لشيء من الأشياء لزم أن يكون مقارناً له دائماً وذلك ينافي كونه مفعولاً له وإنما يصح مثل هذا في الصفة اللازمة للموصوف فإنه إذا قيل الذات مقتضى تام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة ليس المراد بذلك أن الذات مبتدعة للصفة فإنه إذا تصور معنى المبتدع امتنع في المقارن بصريح المعقول سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك وامتنع أن يقوم بالأثر شيء من الحوادث لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه وإن كانت ذات المؤثرة موجودة قبل ذلك لكن لا بد من

kutub-pdf.net

كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وتخلف المعلول عن العلة التامة ووجود الممكن بدون المرجح التام، وكل هذا ممتنع فامتنع أن يكون مؤثر الشيء من الحوادث في الأزل وامتنع أن يكون مؤثراً في الأزل فيما يستلزم الحوادث لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال فامتنع أن يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً.

وإذا قيل ذاته مقتضية للحادث الثاني انقضاء الأول، قيل فليس هو مقتضياً لشيء واحد دائماً فلا يكون معه قديم من مفعولاته، وقيل أيضاً هذا إنما يكون إذا كانت لذاته أحوال متعاقبة تختلف المفعولات لأجلها فأما إذا قدر أن لا يقوم بها شيء من الأحوال المتعاقبة بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله، كان امتناع فعله للحوادث المتعاقبة البائنة أعظم من امتناع فعله لحادث معين فإذا كان الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالإمتناع ومتى كان للذات أحوال متعاقبة تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم وامتنع أيضاً قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لا بد له من فعل حادث والفعل الحادث لا يكون مفعوله إلا حادثاً وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

kutub-pdf.net

وإذا عرف الأصل الذي منه تفرع نزاع الناس في مسألة كلام اللّه فالذين قالوا ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً تنازعوا في كلام اللّه تعالى، فقال كثير من هؤلاء الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ثم قالت طائفة والرب لا يقوم به الحوادث فيكون الكلام مخلوقاً في غيره، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ولم يفرقوا بين قال وفعل، وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بها الخالق فلا يتصف بما يخلقه في غيره من الألوان والأصوات والروائح والحركة والعلم والقدرة والسمع والبصر فكيف يتصف بما يخلقه في غيره من الكلام ولو جاز ذلك لكان ما يخلقه من انطاق الجمادات كلامه ومن علم أنه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزم أن يقول كل كلام في الوجود فهو كلامه كما قال بعض الإتحادية:

وكل كلام في الوجود كلامه
سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم فإن هؤلاء يقولون إنه خالق أفعال العباد وكلامهم مع قولهم

kutub-pdf.net

إن كلامه مخلوق فيلزمهم هذا وأما المعتزلة فلا يقولون إن اللّه خالق أفعال العباد لكن الحجة توجب القول بذلك. وقالت طائفة بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ويمتنع أن يكون كلامه مخلوقاً في غيره وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثاً بعد إن لم يكن لامتناع حوادث لا أول لها وهذا قول الكرامية وغيرهم ثم من هؤلاء من يقول كلامه كله حادث لا محدث، ومنهم من يقول هو حادث ومحدث. وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً، الكلام لازم لذات الرب كلزوم الحياة ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة إذ لو قلنا أنه بقدرته ومشيئته لزم أن يكون حادثاً وحينئذ فيلزم أن يكون مخلوقاً أو قائماً بذات الرب فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده، قالوا وتسلسل الحوادث ممتنع إذا التفريع على هذا الأصل، ثم إن هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فقالت طائفة القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً لأن الصوت يستحيل بقاؤه كما يستحيل بقاء الحركة وما امتنع بقاؤه

kutub-pdf.net

امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأخرى فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة، لأن تلك لا تكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره فلو كانت الميم من بسم اللّه قديمة مع كونها مسبوقة بغيرها لكان القديم مسبوقاً بغيره وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط، ولا يجوز تعدده لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجح، وإن كان لا يتناهى لزم وجود أعداد لا نهاية لها في آن واحد قالوا وهذا ممتنع فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر وهو معنى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية. وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال وهي مترتبة في ذاتها لا في وجودها كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة، ومنهم من قال بل هو أيضاً أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لا توجد إلا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التي توجد في آن واحد كما يفرق بين الأصوات والمداد فإن الأصوات

kutub-pdf.net

لا تبقى بخلاف المداد فإنه جسم يبقى وإذا كان الصوت لا يبقى امتنع أن يكون الصوت المعين قديماً لأن ما وجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد أو ما يقدر بقدر المداد كالشكل المصنوع في حجر وورق بإزالة بعض أجزائه وقد يراد بالحروف نفس المداد. وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطوعة المؤلفة وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها، كما يراد بالحروف في الجسم حده ومنتهاه فيقال حد الرغيف وحد الجبل ونحو ذلك، ومن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ على حَرْفٍ﴾[1] وقد يراد بالحروف الحروف الخالية الباطنة وهو ما يتشكل في باطن الإنسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به.

وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات في الحي الناطق على قولين لهم وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيان الحروف، هل تكون قديمة بدون أصوات قديمة أم لا بد من أصوات قديمة أم لم تزل ولا تزال.

---

(١) سورة الحج الآية ١١.

kutub-pdf.net

ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا في المسموع من القارىء هل يسمع منه الصوت القديم فقيل المسموع هو الصوت القديم وقيل بل المسموع صوتان أحدهما القديم والآخر المحدث فما لا بد منه في وجود القرآن فهو القديم وما زاد على ذلك فهو المحدث، وقيل بل الصوت القديم غير المسموع من العبد وتنازعوا في القرآن هل يقال أنه حال في المصحف والصدور أم لا يقال ذلك على قولين فقيل هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه، وقيل بل القرآن حال في الصدور والمصاحف فهؤلاء الخلقية والحادثية والاتحادية والاقترانية أصل قولهم أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً، ومن قال بهذا الأصل فإنه يلزم به بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك فإن من الناس من يجعله حادثاً يريد أن يكون بعد أن لم يكن ويجعل الحادثات إرادات وتصورات لا حروف وأصوات والداربي وغيره يميلون إلى هذا القول فإنه إما أن يجعل كلام اللّه حادثاً أو قديماً وإذا كان حادثاً فإما أن يكن حادثاً في غيره وأما أن يكون حادثاً في ذاته وإذا كان قديماً فإما أن يكون القديم المعنى فقط أو اللفظ فقط أو كلاهما فإذا كان

kutub-pdf.net

القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام العربي كلام اللَّه ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف. وأما قدم اللفظ فهذا لم يقل به أحد لكن من الناس من يقول أن الكلام القديم هو اللفظ، وأما في معناه فليس هو داخلاً في مسمى الكلام بل هو العلم والإرادة وهما قديمان لكن ليس ذلك داخلاً في مسمى الكلام فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ فقط أما الحروف المؤلفة وأما الحروف والأصوات لكنه يقول أن معناه قديم.

وأما الفريق الثاني الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً وأن القديم الواجب بنفسه يجوز أن يتعقب عليه الحوادث مطلقاً إن كان ممكناً لا واجباً بنفسه فهؤلاء القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم الأفلاك وإنها لم تزل ولا تزال معلولة لعلة قديمة أزلية لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا إنها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته وأما أرسطو وأتباعه فإنهم قالوا إن لها علة غائية تتحرك للتشبه بها فهي تحركها كما يحرك المعشوق عاشقه ولم يثبتوا لها مبدعاً ولا موجباً بذاته وإنما أثبت واجب الوجود بطريقة الوجود ابن سينا وأمثاله.

kutub-pdf.net

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلاً، أما على قول من جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر، فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلاً لها فقولهم في حركة الأفلاك نظير قول القدرية في حركة الحيوان وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم فإن هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره لكون القدرة والداعي مستلزمين وجود الفعل والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد.

فيقال لهم فقولوا هكذا في حركة الفلك وقدرته وداعيه فإنه يجب أن يكونا صادرين عن غيره وحينئذ فيكون الواجب موجباً بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شيء وإن كان ذلك بواسطة العقول وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه وهو باطل أيضاً لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع أن يصدر عنه حادث بواسطة أو بلا واسطة فإن صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع لذاته. وإذا قالوا الحركة متوسطة أي حركة الفلك، قيل لهم فالكلام إنما هو في حدوث الحركة الفلكية فإن الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضى لها علة

kutub-pdf.net

تامة أزلية مستلزمة لمعلولها فإن ذلك جمع بين النقيضين إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزلية ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتاً بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات والأحوال المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتاً موصوفة لا يقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث الحوادث المذكورة فإن التحدد والتعدد والموجود في المعلولات لا يمتنع صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه فصار حقيقة قولهم أن الحوادث العلوية والسفلية لا محدث لها وهؤلاء يقولون كلام اللّه ما يفيض على النفوس الصافية كما أن ملائكة اللّه عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية فلا يثبتون له كلاماً خارجاً عما في نفوس البشر ولا ملائكة خارجة عما في نفوسهم غير العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة مع أن أكثرهم يقولون أنها أعراض وقد بين في غير هذا الموضع أن ما يثبتونه من المجردات العقلية التي هي العقول والنفوس والمواد والصور إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان.

kutub-pdf.net

وأما الصنف الثالث الذين فرقوا بين الواجب والممكن والخالق والمخلوق والغني الذي لا يفتقر إلى غيره والفقير الذي لا قوام له بالغنى فقالوا إن ما قارن الحوادث من الممكنات فهو محدث كائن بعد أن لم يكن وهو مخلوق مصنوع مربوب وأنه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم فضلاً أنه يقارنه حوادث لا أول لها، ولهذا كانت حركات الفلك دليلاً على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك. وأما الرب تعالى إذا قيل لم يزل متكلماً إذا شاء أو لم يزل فاعلاً لما يشاء لم يكن دوامه كونه متكلماً بمشيئته وقدرته ودوام كونه فاعلاً بمشيئته وقدرته ممتنعاً بل هذا هو الواجب لأن الكلام صفة كمال لا نقص فيه فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام إذ كل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق، فالخالق أولى به لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق، ولأن كل كمال ثبت للمخلوق فإنما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له، فإنه لو لم يجب له لكان إما ممتنعاً وهو محال بخلاف الفرض، وإما ممكناً فيتوقف ثبوته له على غيره والرب لا يحتاج في ثبوت

kutub-pdf.net

كماله إلى غيره، فإن معطي الكمال أحق بالكمال فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال، وهذا ممتنع بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال فلا يتوقف ثبوت كونه متكلماً على غيره فيجب ثبوت كونه متكلماً، وأن ذلك لم يزل ولا يزال والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته والذي لم يزل متكلماً إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكناً له، وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وإن قيل أنه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين وإن كان نوع الباء والسين قديماً، لم يستلزم أن يكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة لما علم من الفرق بين النوع والعين وهذا الفرق ثابت في الإرادة والكلام والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات وبه تنحل الإشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها وقدمها وحدوثها وكذلك تزول به الإشكالات الواردة في أفعال الرب وقدمها وحدوثها وحدوث العالم.

kutub-pdf.net

وإذا قيل إن حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكناً بخلاف ما إذا قيل إن عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم فإن هـذا مكابـرة للحس والمتكلم يعلم أن حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها، وأما نفس الصوت المعين الذي قام به أو التقـطيع أو التـأليف المعين لذلك الصوت فيعلم أن عينه لم يكن موجوداً قبله والمنقول عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة مطابق لهذا القـول ولهذا أنكـروا على من زعم أن حرفـاً من حـروف المعجم مخلوق وأنكـروا على من قـال: لمـا خلق اللّه الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر مع أن هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سـري السقطي[1] وهـو نقلها عن بكر بن خـنيس العـابد ولم يكن قصد الشيوخ بها إلا بيان أن العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد اللّه بغير شرع فإن كثيراً من العباد

---

(١) سري السقطي: أبو الحسن، من كبار المتصوفة بغدادي المولد والوفاة، وهو أول من تكلم في بغـداد بلسان التـوحيد وأحـوال الصـوفيـة. كـان إمـام البغـداديين وشيخهم في وقته، وهـو خال الجنيد وأستـاذه، تـوفي عـام ٢٥٣ هـ، الموافق ٨٦٧ م.

kutub-pdf.net

يعبدون اللّه بما تحبه قلوبهم وإن لم يكونوا مأمورين به فقصد أولئك الشيوخ أن من عبد اللّه بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهداً لذلك مع أن هذه لا إسناد لها ولا يثبت بها حكم ولكن الاسرائيليات إذا ذكرت على طريق الإستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك مع أن هذا أمر اصطلاحي وخط غير العربي لا يماثل خط العربي ولم يكن قصد أولئك الأشياخ أن نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني أسماء اللّه الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة بائنة عن اللّه بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم والحروف المنطوقة لا يقال فيها إنها منتصبة ولا ساجدة فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون إن اللّه لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية فقد قال عنهم ما لم يقولوه. وأما الإمام أحمد فإنه أنكر إطلاق هذا القول وما يفهم منه عند الإطلاق وهو أن نفس حروف المعجم مخلوقة كما نقل عنه أنه قال ومن زعم أن حرفاً من حروف المعجم مخلوق فقد سلك طريقاً إلى البدعة فإنه إذا قال أن ذلك

kutub-pdf.net

مخلوق فقد قال إن القرآن مخلوق أو كما قال: ولا ريب أن من جعل نوع الحروف بائناً عن اللّه كائناً بعد أن لم يكن لزم أن يكون كلام اللّه العربي والعبري ونحوهما مخلوقاً وامتنع أن يكون اللّه تكلم به بكلامه الذي أنزله على عبده فلا يكون شيء من ذلك كلامه فطريقة الإمام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثالث الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول[1].

وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سماه الفصول في الأصول سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول سمعت الإمام أبا بكر عبد اللّه بن أحمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الاسفراييني يقول مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام اللّه غير مخلوق ومن قال أنه مخلوق فهو كافر والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعاً من اللّه والنبي ﷺ سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من رسول

---

(١) المشهور أن الإمام أحمد أنكر على من يقول لفظي بالقرآن مخلوق وبدعه وقال إنه جهمي خوفاً من التطرق إلى أن يقول القرآن بلفظي مخلوق لا أنه حكم بكفره فليحرر.

kutub-pdf.net

اللَّه ﷻ وهـو الذي نتلوه نحن مقـروء بألسنتنـا وفيمـا بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومقروءاً وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام اللَّه غير مخلوق ومن قـال مخلوق فهو كـافر عليـه لعنة اللَّه والمـلائكة والنـاس أجمعين. والكلام على هذه الأمـور مبسوط في غيـر هذا الموضع وذكر ما يتعلق بهذا الباب من سائر الصفات كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام في تعـدد الصفة واتحادها وقدمها وحدوثها أو قدم النوع دون الأعيان أو إثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان مع تحـدد كل معين من الأعيان أو غير ذلك مما قيل في هذا الباب فإن هذه مواضع مشكلة وهي من مجـارات العقـول ولهـذا اضـطرب فيهـا طوائف من أذكياء الناس ونظارهم واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، تمت الرسالة والحمد للَّه.

وقد وجد بخط ناسخها تـاريخها هكـذا: وقد تمت بحمد اللَّه وعونه وحسن توفيقه في جمادى الآخرة الذي هو من شهور سنة ١١٦١ من الهجرة على صاحبها الصلاة والسلام.

kutub-pdf.net